جامعة باتنة 1

كلية العلوم الإسلامية

بمناسبة الذكرى الثامنة والعشرين لرحيل المجاهد الحاج لخضر

نظمت الملتقى الوطني الرابع الموسوم بـ :

"الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية لطمس الهوية الوطنية وآليات المقاومة"

يوم 14 أفريل 2026م

الكتابة التاريخية الإصلاحية ودورها في التصدي للسرديات الاستعمارية ـ نماذج مختارة

ط د. فتحي قرازة
كلية العلوم الإسلامية |جامعة باتنة1
fathi.grazza@univ-batna.dz

1/ مقدمة:

عرفت الجزائر خلال الحقبة الكلونيالية المدمرة، تطبيق سياسة الإقصاء العام من طرف الاستعمار الفرنسي شملت جميع المجالات، كان أبرزها وأخطرها سياسة إلغاء وجود الفرد الجزائري من ساحة الجغرافيا والتاريخ، إلغائه كشعب وأمة، هويةً وتاريخًا، فمع تقادم الزمن وبحلول القرن العشرين؛ وبلوغ الاستعمار المئوية، كان قد اطمأن إلى السرديات المتخيلة التي أسسها الضباط والمترجمون العسكريون التابعون له إبان القرن التاسع عشر، بأن الجزائر أصبحت تابعة للإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية تاريخا ومجالا، فكان رد الفعل الجزائري بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي أخذ مناضلوها الإصلاحيون على عاتقهم إحياء الأمة الجزائرية في وجودها ودينها ولغتها، ولم يفوتوا أيضا إحياء تاريخيها، فما هي أهم السرديات التاريخية الفرنسية حول الجزائر وتاريخها؟، وكيف تصدى الإصلاحيون لهذه السرديات؟ وما البديل الذي تم تقديمه؟

2/ الخطوط العريضة للسردية الاستعمارية الفرنسية؛ دوافع و تخريجات

تشكلت السرديات الفرنسية الاستعمارية حول الجزائر من منطلق التعالي المبني على التقابل الثنائي بينهم وبين الأرض التي أخضعوها بالقوة؛ فالحضارة انتصرت على التخلف، والنصرانية هزمت الإسلام، لتتكوّن نتيجةٌ في وجدانهم تمثلت في حتمية تاريخية حكمت التصور الكلونيالي الفرنسي تجاه الجزائر وتاريخها عبر الفترات المتلاحقة حتى بعد الاستقلال[1].

لقد كانت الدوافع التي حركت الفرنسيين إلى الاهتمام بتاريخ الجزائر متعددة ومتشابكة لا تنفك عن الثنائيات المتقابلة التي تم ذِكرها، أبرزها **التعرف أكثر على الشعب الذي تم إخضاعه بالقوة** حديثا؛ إلى المدنية الأوروبية، كذلك **الرغبة في إحكام السيطرة وتثبيت الاحتلال** بالتعرف على الخريطة الثقافية والذهنية للشعب الجزائري، التي تعتمد على التاريخ كأحد الكوامن الصلبة في تشكيلها، إضافة إلى **الفضول العلمي**[2] الذي سيُوظف لخدمة الاحتياجات الاستعمارية وتطبيقه على الأرض المفتوحة، كما لا ننسى **الدوافع الدينية والتصور الديني** الذي تشكّل عبر تراكمات زمنية رسمت موقف الفرنسيين من دار الجهاد، التي تمثل بالنسبة لهم معقل القرصنة البحرية.

إن مما لا يتوجب إغفاله أيضا؛ هو أن احتلال الجزائر تم في القرن التاسع عشر الذي يطلق عليه الأوروبيون قرن التاريخ، كنايةً عن نشوء المدارس والفلسفات التاريخية وتطور مناهجها، فقد شهدت فرنسا تطورًا ملحوظا في مناهج الكتابة التاريخية والأرشيفية بتأثيرٍ من المدرسة

[1] سعد الله أبو القاسم، منهج الجزائريين في كتابة تاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، ع 14-15، 1973، ص: 9-10.
[2] المرجع السابق، ص: 10.

الألمانية، وانتشار مفاهيم المدرسة الوضعية بشكل كبير، والتي لم تتخلص من التصورات القومية لكتابة تاريخ شامل لفرنسا ذو الأغراض السياسية والتربوية، بما في ذلك صناعة تاريخ لمستعمراتها وربطها بتاريخ الإمبراطورية الأم في محاولة لتبرير المشروع الثقافي الهادف إلى تدمير النسيج الاجتماعي لسكّان المناطق المحتلة التي شكلت الجزائر أهم هذه المجالات[1].

إن الدوافع السابقة سواء كانت أحادية أو مجتمعة، جعلت السردية الاستعمارية تسعى لتهميش المجتمع الجزائري وتقليصه في أضيق نطاق عبر جميع مراحل تاريخه[2]، حيث تم إقصاء فترات كاملة من تاريخ الجزائر؛ فالجزائريون كمجتمع **ليسوا كيان أو أمة**، وإنما عبارة عن مجموعة من القبائل المتنافرة يسكنون على رقعة جغرافية تداولت عليها الدول من الفينيقيين إلى غاية الفرنسيين، كما أن الجزائر **كمجال لم يتم اكتشافها علميا** إلا من خلال الاحتلال الفرنسي على يد كتابه وضباطه العسكريين[3]، والتاريخ الإسلامي للجزائر من الفتح إلى العهد العثماني هو عبارة عن فترة **"قرون غامضة"**[4]،وسعيا لاستنساخ التجربة الرومانية في الجزائر، أكدت السردية الكلونيالية أنه لا شيء يستحق الذكر وجدير بالتنويه من تاريخ المنطقة سوىالعهد الروماني[5]، طبعا لتبرير السياسات التي ستطبق على الأرض فيما بعد.

ومما زاد الأمر سوءًا عشية مئوية الاستعمار هو نشر المؤرخين الفرنسيين مؤلفاتٍأمعنت في الطمس والتظليل ساهمت بشكل كبير في توجيه التصورات حول بلاد المغرب، لاسيما كتاب "أسلمة إفريقيا الشمالية القرون المظلمة لبلاد المغرب"،لمؤلفه إميل فليكس غوتييه، وكتاب "بلاد البربر والمشرق في العصر الوسيط" لصاحبه جورج مارسي، حيث سعى المؤلفان إلى تبرير الاستعمار وتحميل الإسلام مسؤولية تدهور حال الجزائريين، فكان لابد من الرد على هذه السرديات المضللة؛ خاصة وأن الجزائريين للأسف الشديد في بداية القرن العشرين افتقدوا إلى مرجع تاريخي حديث يتيح لهم معرفة تاريخ الجزائر بكل مراحله[6]،بعيدا عن الأكاذيب الفرنسية،فكان أن اضطلعتالمدرسة الإصلاحية بهذا العبء لسد الفراغ الحاصل في المكتبة التاريخيةمن جهة، وتفنيد مزاعم المدرسة الكلونيالية ومغالطاتها حول تاريخنا الوطني من جهة أخرى.

---

[1]عمارة علاوة، الشيخ المبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ع 03، ديسمبر 2008، ص: 93.

[2]قنان جمال، مدرسة التاريخ الاستعماري بين الأيديولوجية والموضوعية حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مجلة الدراسات التاريخية، ع5، 1408هـ، 1988م، ص: 130.

[3]مناصرية يوسف، آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان، مجلة الدراسات التاريخية، ع5، 1408هـ، 1988م، ص: 192.

[4]سعد الله أبو القاسم، منهج الجزائريين في كتابة تاريخ الجزائر، مرجع سابق، ص: 29.

[5]سعيدوني ناصر الدين، طبيعة الكتابة التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، ضمن ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، د ط، 2009، ص: 29.

[6]عمارة علاوة، ملاحظات حول تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمان الجيلالي، ضمن الكتاب الجماعي: الشيخ عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الفقيه ذو القرن، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، شعبان 1432هـ، جويلية 2011م، ص: 218-219.

3/ الكتابة التاريخية الإصلاحية؛ التاريخ كأداة للمقاومة:

اهتمت الحركة الإصلاحية الجزائرية بالتاريخ من خلال المحاضرات والخطب التي أُلقيت في شتى المناسبات لاستذكار أمجاد الأمة، إضافة إلى المقالات الصُحفيّة عبرالجرائدوالمجلات المتنوعة التابعة لها، فقد كتب الشيخ عبد الحميد بن باديس (ت 1940) في مجلة الشهاب: "نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونةً موجودةً كما تكونت ووُجدت كل أمم الدنيا، ولهذهِ الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال"[1]، فالتاريخ بالنسبة لمؤسس الحركة الإصلاحية الجزائرية هو دليل وجود الأمم وسجل انجازاتها، لذا تطور الأمر بعد ذلك إلى تأليف الكتب المستقلة بموضوع التاريخ[2]، واستعماله كأداة لتأكيد الهوية الوطنية.

أدرك رواد الحركة الإصلاحية أنه إلى جانب الحرب على الإسلام والعربية، وظف الاستعمار الفرنسي ميدان التاريخ لفرنسة الجزائريين، وإلغاء الخصائص الوطنية؛ التاريخية والجغرافية للجزائر[3]، لذا فقد شهدت بداية الثلاثينات ظهورعدة مؤلفات تاريخية باللغة العربية تناضل من أجل التاريخ الوطني وترد على المزاعم الفرنسية، فنشر الشيخ المبارك الميلي كتابه **تاريخ الجزائر في القديم والحديث** في مجلدين (1929-1932)، وأصدر الشيخ أحمد توفيق المدني مجموعة من التواريخ ابتداء منسنة 1927، في شكل موضوعات مستقلة لها علاقةبتاريخ الجزائر، إضافةً إلى إصدار كتبٍ حول جغرافيا الجزائر، كما لا يفوتنا أن الشيخ عبد الرحمان الجيلالي نشر قُبيل حرب التحرير جزئين من **تاريخ الجزائر العام** (1953-1954)[4]قبل أن يتم استكماله وتطويره في طبعات متلاحقة بعد الاستقلال.

4/ تاريخ الجزائر في القديم والحديث للشيخ المبارك الميلي(1898-1945):

أخرج الشيخ المبارك الميلي كتابه سنة 1929، ومن خلال دلالة العنوان **"تاريخ الجزائر في القديم والحديث"** كان الهدف من الكتاب إثبات عراقة التاريخ الجزائري وأصالته وامتداده في القِدم عبر الفترات الزمنية الطويلة تفنيدا لمزاعم السرديات الفرنسية بأن الجزائر كانت أرضا شاغرة قبل وصول الفرنسيين[5].

ابتدأ الميلي كتابه بإهداءٍ ختمه بعبارة "نهدي كتابنا هذا إلى الشعب الجزائري..."[6]، وعبارة الشعب الجزائري التي لم تكن مألوفة في أدبيات تلك المرحلة خاصة عند الفرنسيين، الذين يستعملون مصطلحي الأهالي والمسلمين، لها دلالتها العميقة في الاستقلالية عن المفاهيم

---

[1]مجلة الشهاب، في الشمال الإفريقي كلمة صريحة، ج1، مج12، محرم 1355هـ، ابريل 1936، ص: 43-44.

[2]لونيسي براهيم، الكتابة التاريخية عند رجال الحركة الإصلاحية الجزائرية وأهدافها، الحوار المتوسطي،ع3-4، مارس، 2011-2012، ص: 161.

[3]محمد الميلي، من تقديم كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث، لمبارك بن محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج1، د ط، د ت، ص: 29.

[4]علي زرارقة، المؤرخون الجزائريون في مواجهة كتابات المدرسة الاستعمارية الفرنسية ما بين سنتي 1830-1962، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مج6، ع1، جانفي 2023، ص: 351.

[5]لونيسي براهيم، الكتابة التاريخية عند رجال الحركة الإصلاحية الجزائرية وأهدافها، مرجع سابق، ص: 161.

[6]مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مصدر سابق، ص: 05.

الفرنسية؛ وأن هناك شعبا مستقلا في تاريخه الوطني وتراثه وأرضه، أما الفرنسيونفمجرد أجانب دخلاء[1]، لا علاقة لهم بهذه الأرض.

تظهر أهمية كتاب الشيخ المبارك الميلي أنه مهد الطريق لقيام حركة التأليف التاريخي على يد جزائريين وطنيين بعدما كانت حكرا على الفرنسيين، أما معرفيا فقد أراد لتاريخه أن يكون تاريخَ أمةٍ بمفهومها الشامل، لا تاريخ الحكام والأعيان والقواد العسكريين[2] مثلما هو شائع في كثير من تراثنتا التاريخي الإسلامي.

أبان تاريخ الميلي من خلال لغته وطريقة تعاطيه مع التاريخ عن نفس إصلاحي، وبُعدٍ وطني هُويّاتيٍ؛ بدمج مسار التاريخ الجزائري في فلك الحضارة العربية الإسلامية من خلال التركيز على فترة التاريخ الإسلامي الوسيط، التي سعى المستعمرون لطمسها وهمزها بفترة القرون المظلمة، لذا كانت محورية هذه الفترة منطلقا لمدافعةالسرديةالاستعمارية،ودعامةً للتأكيد على أن المشروع الإصلاحي هدفه إحياء الأمة التي يراد لها أن تزول، أما التاريخ القديم للجزائر فقد أُستعملَ للبرهنة على جذور الأمة الجزائرية وتأكيد استمراريتها على أرضها[3].

إن التاريخ عند الميلي هو وجود الأمة ذاتها، لذا كتب في مدخل عنوانه مقدمات بأن التاريخ هو: "دليل وجود الأمم وديوان عزها ومبعث شعورها وسبيل اتحادها وسلم رقيها، متى درسه أبناء أمة وأحاط أخيرا بأدوارهِ شبابها، عرفوا وجودهم فلم تبتلع قوميتهم القوميات الحية النهمة المجاورة لهم، وأدركوا ما لماضيهم من المجد وما لأسلافهم من الشرف، فلم يقبلوا تنقيص المنقصين وعبث المدلسين وقدح المغرضين، وشعروا بعز السيادة ولذة الحياة، فانفوا من سيطرة المستبدين ولم يخضعوا لذل المستعبدين"[4].

هاجم الميلي محوريةالتاريخ الروماني الذي ركزت عليه السردية الاستعمارية، مبرزا أن البربر عانوا من الاحتلال الروماني، ومشيرا بأن الحياة البربرية كانت أسعد قبله، أما بعد مجيء الرومان فقد انتزعوا الأراضي واستعبدوا السكان وأثقلوا كاهلهم بالضرائب[5]، لذا فقد كانت الرسالة واضحة للشعب الجزائري، فما فعله الرومان قبلا يطبقه اليوم الفرنسيون أمامكم، فحالكم اليوم أتعس من حال أجدادكم[6]، في تعريض واضح بالسياسة الفرنسية.

ولم يفوت الميلي ذكر ثورات البربر ضد الرومان، التي في رأيه تُنم عن روح وطنية كامنة تعبر عن الرغبة في تحقيق الاستقلال والسيادة، ومن خلال تخريجات وآراء الميلي حول تاريخ البربر القديم، يظهر أن هدفه هو ترسيخ فكرة العداوة المتأصلة بين البربر والقوى الاستعمارية

---

[1]سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر القافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج7، ط1، 1998، ص: 416.

[2]المرجع السابق، الصفحة نفسها. و بوبيدي حسين، التاريخ في خدمة المشروع الإصلاحي ومدافعة التزييف الاستدماري، ضمن أعمال الملتقى الوطني الموسوم بـ: إسهام علماء منطقة جيجل ومشايخها في الحركة الوطنية والثورة التحريرية المباركة، المركز الثقافي الإسلامي، جيجل، 15و16 فيفري 2016م، ص: 196.

[3]بوبيدي حسين، التاريخ في خدمة المشروع الإصلاحي ومدافعة التزييف الاستدماري، مرجع سابق، ص: 196.

[4]مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مصدر سابق، ص: 32-33.

[5]مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مصدر سابق، ص: 277-288.

[6]بوبيدي حسين، التاريخ في خدمة المشروع الإصلاحي ومدافعة التزييف الاستدماري، مرجع سابق، ص: 205.

الغربية، في حين انفتاحهم على الشرق وتفاعلهم معه، فكان دفاعه عن الفينيقيين، ثم اعتناق البربر للإسلام وانخراطهم في حضارته كمحاولة لبرهنة على ما ذهب إليه[1].

5/ تواريخ الشيخ أحمد توفيق المدني(1899-1983):

اشتهر أحمد توفيق المدني بغزارة الإنتاج؛ حيث بَحث في كثيرٍ من المواضيع التاريخية المتفرقة التي لها صلة خاصة بالجزائر، ويلاحِظُ الباحث في مؤلفات المدني أن كلاً منها وُجِّهه لنقض سردية فرنسية حول التاريخ الوطني، إضافة إلى المنهج الشمولي الذي تميز به، إذ جمع بين الذاتية الجزائرية والإقليمية المغاربية في كتاباته التاريخية، فكان مؤثرا على الساحة المغاربية، وخير دليل على ذلك قيام السلطات الفرنسية بمصادرة كل نسخ باكورة أعماله **"تقويم المنصور"** من جميع البلدان المغاربية الثلاث سنة 1926[2]، بسبب احتوائه على أفكارٍ تحررية.

كان المدني يسعى من خلال تواريخه إلى تفنيد الادعاءات ودحض الأحكام التي أطلقها المؤرخون الاستعماريون على ماضي الجزائر، فقالوا أنها تاريخ شاغر بلا دولة ولا سيادة ولا وطن، فرد عليهم أن للجزائر عبر التاريخ أرضا وسيادة وطنية ودولة لم يتمكن الغزو الاستعماري الأوروبي من طمسها[3].

نشر أحمد توفيق المدني عدة كتب تاريخية تناول خلالاها عدة مواضيع، سطر من خلالها الأهداف السابقة، ففي سنة 1927 نشر كتابه **"قرطاجنة في أربعة عصور"** أو تاريخ شمال إفريقيا قبل الإسلام"[4] كمحاولة لربط المنطقة بالشرق وتجاوز الأطروحة الفرنسية التي تركز على ربطها بالفترة الرومانية[5]، فسعى من خلال كتابه إلى نسف خرافة المغرب اللاتيني[6]المرتبط بروما، وذكر المدني أن سبب تأليفه للكتاب هو ما دار بينه وبين الشيخ المبارك الميلي في أحد السهرات حول الأكاذيب التي يروجها لوي برتران عضو المجمع العلمي الفرنسي آنذاك، فقد ادعى برتران أن "الرومان كانوا في هذا الوطن كل شيء، وأنهم أصل الحياة فيه وأساسها، وأنهم طبعوا وطن المغرب العربي بطابعهم الخاص، فلن يزول عنه ذلك الطابع، وأنهم صبغوه بصبغة لن تتحول إلى الأبد، وأن العرب سرقوا كل ذلك واختلسوه اختلاسا"[7].

---

[1]مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مصدر سابق، ص: 73. وبوبيدي حسين، التاريخ في خدمة المشروع الإصلاحي ومدافعة التزييف الاستدماري، مرجع سابق، ص: 206.

[2]خليفي عبد القادر، أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية بتونس والجزائر 1899-1983م، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحيث والمعاصر، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، السنة الجامعية: 1427هـ- 1428هـ/ 2006م- 2007م، ص: 102، 105.

[3]غالم محمد، براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الإصلاحي: أحمد توفيق المدني نموذجا، مجلة عصور الجديدة، ع3-4، خريف 1432-2011، 1433-2012، ص: 191.

[4]بشير مدني، أحمد توفيق المدني معلم من معالم المدرسة التاريخية الجزائرية، ضمن المدرسة التاريخية الجزائرية: بحوث الملتقى الوطني الأول حول المدرسة التاريخية الجزائرية، اتحاد المؤرخين الجزائريين، ط1، 1998، ص: 146.

[5] بوبيدي حسين، التاريخ في خدمة المشروع الإصلاحي ومدافعة التزييف الاستدماري، مرجع سابق، ص: 196.

[6]غالم محمد، براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الإصلاحي: أحمد توفيق المدني نموذجا، مرجع سابق، ص: 193.

[7]أحمد توفيق المدني، مبارك الميلي مؤرخ الجزائر، البصائر، ع26، 8 مارس 1948، ص: 4.

لذا على غرار الميلي؛ هاجم المدني التاريخ الرومانيبما يمثله من مركزية ورمزية لدى الفرنسيين،فاعتبر حكومة روما حكومة استعمارية بحتة تعتمد على جالية رومانية كثيرة العدد، ولا تعرف البربرَ إلا في استغلالهم لمصالحها الاستعمارية، وإثقال كاهلهم بالضرائب[1]، في تلميح للسياسة الاستعمارية في تلك الفترة، ولاستنهاض الهمم في مدافعة الواقع التعيس للجزائريين، ركز المدني في كتابه على خصائص البربر، وأبرزها مقاومتهم الشديدة للتوسع الاستعماري الروماني[2]، ورفضهم له من خلال التمردات والثورات.

فكانت الرسالة للفرنسيين من خلال كتابهأن الشعب الجزائري الواقع تحت احتلالهم لن يندمج في الجنس الفرنسي، وليدعم سرديته هذه، عقد مقارنة بين علاقة البربر بالفينيقيين من جهة، وعلاقاتهم بالرومان من جهة أخرى،فكان الاتفاق مع القرطاجنيين نظرا لامتزاج الحضارتين، في حين كانت العلاقة مع الرومان متناقضة ومتنافرة[3] ميزتها التوترات والتمردات.

من الأمور المهمة أيضا في إنتاج المدني اهتمامه بشكل لافت بالجغرافيا، سواء جغرافيا القطر الجزائري الذي أفرد له كتابا خاص، أو جغرافيا بلاد المغرب العربي، فقد ذكر في مقدمة كتابه "قرطاجنة" مساحة المغرب العربي ككل، وذكر سكانها في تلك الفترة؛ فالإضافة إلى العرب والبربر، لم ينسالإشارة إلى الفرنسيين والإيطاليين والإسبان واسمًا إياهم بالأجانب[4]،فكان كتابه الآخر الذي صدر سنة 1928 **"كتاب الجزائر"**، الذي بدأه بخلاصة سريعة عن تاريخ الجزائر من أقدم العصور إلى الاحتلال الفرنسي، مؤكدا على أن الجزائر كانت مأهولة منذ العصر الحجري[5]متصديا بذلك للسردية الكلونيالية حول شغور الأرض.

بجانب إبطاله لخرافة المغرب اللاتيني وشغور الأرض؛ لم يفوت أيضا الدفاع عن حقبة الجزائر العثمانية التي تم تشويهها من طرف الاستعمار فصدر له كتاب سنة 1938 تحت عنوان: **"محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791"**،وهو عن حياة أطول الدايات عهدا وحكما، وأصلحهم حالا[6]، وكان الهدف من الكتاب هو تفنيد المزاعم الفرنسية حول مسؤولية العثمانيين في التخلف الاجتماعي والاقتصادي الذي شهدته الجزائر، وجعْلها مغارةًللسفاكين وملجأ لصوص البحر، وأن الجزائر كانت تحت رحمة مليشيات النهب والفوضى والعنف بدون دفن الجثث!!، هذه التهم التي وصفها المدني بالجائرة، مستدركًا في نفس الوقت أن السردية الاستعمارية تغاضت عن الممارسات المخزية لملوك وأمراء ونبلاء أوروبا في نفس الفترة[7]، فكانت سيرة الداي الذي كتب عنه بما اتصف به من صفات إيجابية نقضا للادعاءات الفرنسية.

---

[1]أحمد توفيق المدني، قرطاجنة في أربع عصور، مصدر سابق، ص: 105.

[2]صاري الجلالي وآخرون، المقاومة السياسية 1900-1954 الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1987، ص: 254.

[3]بلقاسم ميسوم، الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962 دراسة تحليلية، أطروحة بحث مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية: 2012/2011، ص: 178.

[4]أحمد توفيق المدني، قرطاجنة في أربعة عصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1986، ص: 11.

[5]أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، د ط، د ت، ص: 5.

[6]سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، مرجع سابق، ص: 420.

[7]أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1986، ص: 7، 9.

كان المدني في كل انتاجه ذا نزعة دينية في معالجة الوقائع التاريخية، لذا حاول أن يصب كل شيء حدث في التاريخ لصالح الإسلام[1]، مما يعكس النفس الإصلاحي لديه، كما أنه يتفق مع الميلي من حيث طبيعة الاستعمار وسياسته، ومن حيث وجود ملكية تاريخية للجزائريين، وبالتالي وجود شخصية خاصة بهم[2]، لذا فقد كتب التاريخ بمنظورٍ وطني وحسٍّ ديني يوظفهما لإثارة النفوس وتربية الأجيال على حب الوطن والدعوة إلى التحرر من الاستعمار[3].

6/ تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالي: (1908-2010)

عشية اندلاع الثورة التحريرية أصدر الشيخ عبد الرحمن الجيلالي كتابه**تاريخ الجزائر العام**سنة 1953، تناول فيه التاريخ الجزائري من أقدم العصور إلى العهد العثماني[4]،وقد نشرت جريدة المنار حورا مع الشيخ الجيلالي أثناءتسليم الكتاب للطبع من طرف المطبعة العربية بالجزائر، حيث ذكر في هذا الحوار سبب تأليفه للكتاب، وهو أن التاريخ الجزائري تميزبالغموض والتشعب والتشتت، كما أنه في تلك في الفترة لم يُدرس الدراسة الواضحة، فأراد بحسب تعبيرهتطهيره من هذه العيوب التي جعلت الناس يجهلونه، والحرص على إظهار أن لهذه الأمة الجزائرية تاريخا ماجدا تستطيع أن تفتخر به[5]، كما تولى محمد علي دبوز بعد صدور الكتاب التعريفبه وتلخيص أهم ما جاء فيه إبان حرب التحرير على صفحات جريدة البصائر سنة 1955 في أعداد متتاليةومتفرقة[6].

كان هدف الجيلاليمثل هدف من سبقوه، هو إثبات وجود الشخصية الجزائرية ردًا على من شكك في وجودها كفرحات عباس، من خلال التركيز على الجذور التاريخية الإسلامية للهوية الجزائرية فكان الاهتمام منصبا على الفترة الإسلامية، حيث كتب ضمن مقدمته: "أسهبت مشبعا البحث في العصور الإسلامية إسهابا يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام بلاده وتمجيد تاريخه اللامع العظيم والثقة بمستقبله الزاهر النير، مع نفخ روح القومية فيه"[7].

لذا ابتدأ كتابه بتعريف التاريخ وعلاقته بالقومية ضمن مسردٍ أورد من خلاله مقولات أشهر المفكرين العرب والأجانب التي ركزت كلها على ربط التاريخ بالقومية والهوية والانتماء[8]، في مسعًى لتأصيلٍ يهدفُ إلى إحياء ذاكرة الأمة الجزائرية، والذي لن يكتمل إلا إذا عرف أبناء الأمة وظيفة التاريخ في شحذ العزائم واستنهاض الهمم، فكان الكتاب تربويا يهدف إلى تبسيط المعلومة للمتلقي العادي.

إن سبب تركيز الشيخ الجيلالي في كتابه على العصور الإسلامية وبحكم تكوينه الشرعي؛أن الاستعمار عمل على محاربة الإسلام عقائديا وأدبيا، معتبرا أن ما دونه الميلي والمدني حول

---

[1]مرتاض عبد المالك، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1983، ص: 209.

[2]بلقاسم ميسوم، الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962، مرجع سابق، ص: 178.

[3]غالم محمد، براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الإصلاحي: أحمد توفيق المدني نموذجا، مرجع سابق، ص: 192.

[4]سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج7، مرجع سابق، ص: 423-424.

[5]تاريخ الجزائر العام، جريدة المنار، ع45، شوال 1372ه، يوليو 1953، ص: 2.

[6]تراجع البصائر لسنة 1955، الأعداد التالية: 312، 313، 315، 317، 318، 319، 321، 322، 323، 327، 328.

[7]عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج1، ط2، 1384ه، 1965م، ص: 9.

[8]المصدر السابق، تراجع الصفحات، 16-22.

تاريخ الإسلام في الجزائر غير كاف[1]، فخصص مكانا واسعا للفترة العربية الإسلامية للفت انتباه الشباب الجزائري المسلم إلى أعمال أجدادهم[2]،وهذا ما يلاحظ منإهداء الكتاب الذي قدمهلعقبة بن نافع واصفا إياه بـ: "حامل قبس الهداية الإسلامية إلى هذه الديار، ومنقذها من وصمة الكفر والعار، والمعلي فيها كلمة الله، والمجاهد في سبيل الله، إلى فاتح إفريقية، وقاهر القوات الرومانية وكاسر عادية البيزنطية"[3].

هذا في الوقت الذي اختصر فيه الجيلالي المرحلة الرومانية من تاريخ الجزائر التي لم تبلغ من مساحة الكتاب سوى مئة صفحة، ملقيا الضوء كسابقيه على سوء سلوك الرومان مع الأهالي، فكان فساد السيرةسببا في الثورة على الطغيان الروماني من قبل "أحرار الجزائر وأباة الضيم منهم، فعصفت برؤوسهم نخوة الشهامة الوطنية وثارت بهم حمية الأنفة[4]، في إسقاطوإيحاء واضح للشعب الجزائري بالثورة ضد الطغيان الفرنسي، في ظروف حرجة عاشتها الحركة الوطنية والشعب الجزائري قبيل اندلاع الثورة التحريرية.

7/ خاتمة:

نستحضر في خاتمة هذه المداخلة العبارة الشهيرةللفيلسوف الإيطالي بينيدتو كروتشه: "كل تاريخ هو تاريخ معاصر"،والتي في ضوئها الفلسفي أكدمؤرخو الحركة الإصلاحيةمعناها جيدا، وتم تطبيقها في جهودهملكتابة تاريخ الجزائر، من خلال إبراز واقعهم المعاصر في مرآة تاريخيهم، والاسقاطات التي نبهوا لها بشكل مباشر أو غير مباشر، بضرورة الوعي بالوطن الجزائري، ومساهمة كتاباتهم التاريخية في الدفاع عن عراقة الأمة الجزائرية ووجودها، فكان الوعي الحقيقي باللحظة التاريخية الآنية بالنسبة لهم لا يكون إلا بوعي الماضي المشرق لوطنهم[5].

لقد نجحت الكتابات التاريخية الإصلاحية في توجيه الشعب الجزائري إلى عدم الاندماج مع المستعمرين، والاستعداد لمواجهتهم، فكان عملا نضاليا بامتياز، استخدِم فيه التاريخ لفائدة الكفاح السياسي ومقاومة السيطرة الاستعمارية على جميع الأصعدة من خلال الإسقاطات التاريخية للشعب الجزائري.

إن ما أثبتته الوقائع فيما بعد يؤكد نجاح المؤرخين الإصلاحيين في تحقيق أهدافهم، فقد استطاعوا التصدي للسرديات الاستعمارية وإبطال تأثيراتها وفق ما كان متاحا تلك الفترة، وخير دليل على هذا النجاح هو اندلاعحرب التحرير الجزائرية بتصوراتٍوشعاراتٍ كلها مستوحاة من التاريخ الإسلامي الوسيط للجزائر، الذي دافعت عنهوركزت عليه الكتابة التاريخية الإصلاحية، لذا فإنه على المدى القريب والمتوسط لازالت الكتابة التاريخية الإصلاحية تحتفظ

---

[1]بلقاسم ميسوم، الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962، مرجع سابق، ص: 253.

[2]صاري الجلالي وآخرون، المقاومة السياسية 1900-1954 الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، مرجع السابق، ص: 253.

[3]عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مصدر سابق، ص: 12.

[4]المصدر السابق، ص: 91.

[5]عيساوي أحمد، صورة الاستعمار الفرنسي البشعة من خلال المادة التاريخية لكتاب تاريخ الجزائر العام للشيخ المؤرخ الفقيه عبد الرحمن الجيلالي، ضمن الكتاب الجماعي: الشيخ عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الفقيه ذو القرن، مرجع سابق،ص: 115.

بمرجعيتها العلمية والثقافية والتربوية، وتسجل حضوراواهتمامالافتا لتجربتها؛في القراءات التاريخية المعاصرة للجزائر.

4/ قائمة المصادر والمراجع:

1. أحمد توفيق المدني:
   - **مبارك الميلي مؤرخ الجزائر**، البصائر، ع26، 8 مارس 1948.
   - **قرطاجنة في أربعة عصور**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1986.
   - **كتاب الجزائر**، المطبعة العربية، د ط، د ت.
   - **محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-**1791، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1986.
2. بلقاسم ميسوم، **الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962 دراسة تحليلية**، أطروحة بحث مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية: 2012/2011.
3. كاتب مجهول، **تاريخ الجزائر العام**، جريدة المنار، ع45، شوال 1372ه، يوليو 1953.
4. خليفي عبد القادر، **أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية بتونس والجزائر 1899-1983م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحيث والمعاصر، جامعة منتوري قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والآثار، السنة الجامعية: 1427هـ- 1428هـ/ 2006م- 2007م.
5. سعد الله أبو القاسم:
   - **تاريخ الجزائر الثقافي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج7، ط1، 1998.
   - **منهج الجزائريين في كتابة تاريخ الجزائر**، مجلة الأصالة، ع 14-15، 1973.
6. سعيدوني ناصر الدين، **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، دار البصائر، الجزائر، د ط، 2009.
7. كتاب جماعي،**الشيخ عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ الفقيه ذو القرن**، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، شعبان 1432هـ، جويلية 2011م.
8. صاري الجلالي وآخرون، **المقاومة السياسية 1900-1954 الطريق الإصلاحي والطريق الثوري**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، 1987.
9. عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج1، ط2، 1384ه، 1965م.
10. علي زرارقة، **المؤرخون الجزائريون في مواجهة كتابات المدرسة الاستعمارية الفرنسية ما بين سنتي 1830-1962**، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا، مج6، ع1، جانفي 2023.
11. عمارة علاوة، **الشيخ المبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لكتابة تاريخ الجزائر**، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ ع 03، ديسمبر 2008.
12. غالم محمد، **براديقما المقاومة في الخطاب التاريخي الإصلاحي: أحمد توفيق المدني نموذجا**، مجلة عصور الجديدة، ع3-4، خريف 1432-2011، 1433-2012.

13. قنان جمال، **مدرسة التاريخ الاستعماري بين الأيديولوجية والموضوعية حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر**، مجلة الدراسات التاريخية، ع5، 1408هـ، 1988م.
14. لونيسي براهيم، **الكتابة التاريخية عند رجال الحركة الإصلاحية الجزائرية وأهدافها**، الحوار المتوسطي،ع3-4، مارس، 2011-2012.
15. مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج1، د ط، د ت.
16. مجلة الشهاب، ج1، مج12، محرم 1355هـ، ابريل 1936.
17. مرتاض عبد المالك، **نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1983.
18. مناصرية يوسف، **آراء المؤرخين الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر من خلال كتابات جون كلود فاتان**، مجلة الدراسات التاريخية، ع5، 1408هـ، 1988م.
19. المدرسة التاريخية الجزائرية: بحوث الملتقى الوطني الأول حول **المدرسة التاريخية الجزائرية**، اتحاد المؤرخين الجزائريين، ط1، 1998.
20. بحوث الملتقى الوطني الموسوم بـ: **إسهام علماء منطقة جيجل ومشايخها في الحركة الوطنية والثورة التحريرية المباركة، المركز الثقافي الإسلامي**، جيجل، 15و16 فيفري 2016م.